فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

٢٧ – تطور الحركة الفلسفية في المانيا

الناحية الايجابية من مذهب نيتشه

السوبرمان

أو الانسان الأعلى

للأستاذ خليل هنداوى

— ١ —

إن أوربا الحاضرة قد انسل إليها الداء ، ترى فيها حيث نظرت مظاهر العلة والانحطاط . فكأن نصباً بالغاً حل على الانسان فكبَّل قواه وأضوى عزمه . وهو بعد أن قطع سبيله من دودة أرضية إلى قرد ، ومن قرد إلى انسان أصبح يجنح فى هذه الساعة إلى راحة بعد هذا التطور الذى شق فيه . لا يحفل إذا كانت الراحة فى الوقوف أو فى الموت ، وهنالك مذاهب كثيرة تتعلق بأطراف ثوبه تغريه بعوامل جميلة وآفاق مطرزة . هذا يعد بالسعادة المطلقة ، وهذا يعـــده بحياة ما أجل أفقها ! المذهب الديموقراطى مذهب منحط فى الجماعات ، ومذهب ديانة الألم هو مذهب الضعفاء . وأولئك الشكوكيون المتقون المارقون الذين ألفوا « مثوى » لهم عند زرادشت ، هم منحطون يتألمون من وجودهم ، ويكادون يختنقون سأماً من أنفسهم واحتقاراً لها كلما وقعت أنظارهم على الانسان الحاضر

أليس هذا هو الانسان المتشائم الآسى الذى ينطق بمواعظ الموت قائلاً : « كل شىء باطل الأباطيل » « لا شىء يجدى ! السعى باطل » . « لا جزائر سعيدة وراء المحيط » ! . هنالك متشائمون كثيرون أووا إلى كهف زرادشت ، منهم الملكان اللذان هجرا مملكتهما لأنهما لم يخلقا أول الرجال ، والآن يريدان ألا يأمرا ولا ينهيا أحداً . وهنالك العالم الذى يمكس صور الأشياء ، ويضحى بحياته ابتغاء أن يدرس دماغ علقة . وهنالك الساحر المشعوذ الذى يعبث كثيراً بحقائق الأشياء ويخدع كل الناس دون أن تجوز عليه خدعة . ثم يتحرى — وقلبه مفعم سأماً وكآبة — عن مجد مشروع صحيح . وهنالك «البابا الأخير» من لم يستطع أن يجد لنفسه عزاء عن موت الآله . وهنالك أقبح الرجال ، قاتل الآله ، لأن الآله خنق اشفاقه على بؤس الناس وشقائهم . وهنالك السائل الذى مقت الانسان المتمدن ، يتحرى إزاء قطعان البقر السارحة فى المروج ، يتحرى عن السعادة . وهنالك الشكوكى الذى قذف به جموح عقله إلى إضاعة نفسه ، فضل وغوى وانطلق — بدون أمل — يسبح فى أرجاء الوجود . كل هؤلاء يشون من داء عميق يحز فى قلوبهم حزاً . فهم يطوفون فى الآفاق وقد أخذ القلق منهم كل مأخذ . فالناس وكل ما يؤمن به الناس من السعادة لا يزيدهم إلا سأماً . فهم أمسوا ولا إيمان لهم بكل الرموز التى يقدس الشعب ألفاظها ومعانيها . فلا ما وصلت إليه المادة بمغنيهم نفعاً ، ولا الايمان بالمثل الأعلى يعمر قلوبهم ، فماذا يجب على الانسانية إذاً أمام هذه الهاوية ؟ فهل تقف مشيها وتطلب نفى الحياة وتنشد العدمية ؟

يجيب نيتشه : لا ! لأن الانحطاط لا يؤول إلى العدم ، بل

يبريق الياقوت والمسجد ، وتكون النيوم ذوات أهداب من لجين

— ٦ —

يا أيتها الفتيات اللواتى تشوقهن ملاهى الرقص الضاحك !

لا تنسين تلك البنت الاسبانية التى انطفأت شعلتها إلى غير عودة ! ولا تنسين أنها كانت تنتقل من حفلة إلى حفلة باشة فرحة ، فتقتطف بيد مسحورة ، أزاهير العمر العبقة ، وتكسب روحها لذائذ الحياة الطاهرة ، وتملأ عينها بزاهى الألوان الساحرة

على أنها مضت إلى عتبات الموت سريعاً ، فقضت كما قضت أوفيليا [1] التى جرفها السيل وهى تقطف الورد والزهور ، فراحت غريضة الشباب والجمال فى ظلمات القبور

حلب — فؤاد نور الدين

معلم الترجمة بمدرسة الزهراء الثانوية

---

(١) Ophélc أحد أشخاص المأساة (هملت) وهو أروع شخص ابتكره شكسبير . أوفيليا جنت من اليأس ، فأخذت تقطف الزهور على شاطىء النهر فسقطت فى الماء ولاقت حتفها . (لاروس)

قد يكون الانحطاط بشائر حياة جديدة وعافية قوية ، وأن مما لا ريب فيه أنه لا يمكن الرجوع بالانسانية إلى الوراء . « يجب الاقدام ، الاقدام إلى الأمام ... تقدموا رويداً رويداً في الانحطاط ، وكما أن أوراق الأشجار تصفر في الخريف وتتناثر على الحضيض ، كذلك الانحطاط قد يكون طليعة سلالة جديدة ، والانسانية تهب باحتضارها حياة سامية ، إن الانسانية تتمخض وتتألم من أوجاع الولادة ؛ ولذلك لم يحمل زرادشت تعاسة الرجال السامين إذ يعتقد بأن الانسان ينبغي له أن يتألم كثيراً ليستطيع الوثوب على القمم العالية . إن شقاء الرجال السامين وسأمهم من الناس ومن أنفسهم ضروريان ، ليصر فاهم إلى المواطن العالية وليزيدهم جرأة واقداماً على الوثوب . وإذا كان هؤلاء الرجال السامون هم بأنفسهم نماذج ناقصة للانسانية فما همُّ ذلك ؟ يجب أن يكون هنالك انحطاط ونقص حتى يجيء النموذج كاملا من كل وجه . إن الانسان السامي هو كالاناء ، يتهيأ فيه مستقبل الانسانية ، وفيه تتآلف وتتجاذب وتعمل كل الجذور التي ستظهر يوماً لمعانقة أشعة الشمس ، على أن أكثر من إناء واحد ووعاء واحد بين هذه الأوعية سيتصدع وسيتحطم ؛ ولكن ما هم ذلك ؟ أإذا ساءت ولادة فرد ما فهل ساءت الانسانية كلها ؟ وإذا ساءت ولادة الانسانية كلها فما هم ذلك ؟ إن الانسان خاضع لهذا التشبيه الذي فرضه نيتشه . « إن الانسان هو حبل ممدود بين الحيوان والسوبرمان ، ليس الانسان بغاية ، إنما الانسان مجاز وممر ، وليفن الانسان في سبيل حياة السوبرمان . يقول زرادشت للشعب الحاشد حوله :

« إني أعلمكم السوبرمان ؛ الانسان يجب أن يفوق الانسان ؛ ماذا فعلتم لتفوقوا الانسان ؟

كل الكائنات سارت في طريق الابداع إلى ما هو أسمى : وأنتم يا بني الانسان شئتم أن تكونوا من الموجة جزرها لا مدها ، بل آثرتم العودة إلى الانسانية على السمو فوق الانسانية

ماهو الفرد في عين الانسان ؟ إنه لخزي وعار . وهذا ما يجب أن يكون الانسان في عين السوبرمان : خزي وعار . ها إني أعلمكم السوبرمان :

إنه هو ابن الأرض ، فلتقل إرادتكم ، بلى . ليكن السوبرمان ابن الأرض » !

— ٢ —

من هو السوبرمان ؟ وكيف يستطيع الانسان أن يكونه ؟ يمكننا تحديد السوبرمان بأنه هو الانسان الذي يعرف عن نفسه كل التقاليد الموروثة من مذاهب وشرائع سارية في جسد أوروبا . يصرفها عن نفسه ليعود إلى تقاليد وضعها رجال نبلاء وأسياد خلقوا بأنفسهم هذه القيم ولم يقتبسوها من غير أنفسهم . وليس معنى ذلك أن نعود بالانسان إلى الوراء — إلى عصر الوحشية — وإنما نريد من الانسان أن يبقى محتفظاً بمعارفه وبتجاربه التي شق فيها أدهاراً طويلة . . . ولكنه يجب عليه أن يحطم مجموعة التقاليد والشرائع التي تعوق سيره وتحول بينه وبين التقدم المنشود

إن الانسان بذهابه من الوجود يفتح الطريق للسوبرمان . وما أشبه هذا الاجتياز بالحركة التي تولد الرجل الزاهد عند « شوبنهاور » . يعتقد المتشائم الكبير بأن الألم قد يقود الانسان إلى الانعتاق من إرادته الشخصية ، ويسير به إلى الأنتحار في النهاية . ولكن هذا لا يغني وحده في نقله ، وإنما لا ينبغي له إذا أراد الخلاص أن يقنع بالتنازل عن حياته الخاصة التي يحرزها ، بل أن يتنازل عن الحياة عامة ، وبهذا الثمن يستطيع أن يحس بالهدوء . أما عند نيتشه فان الألم هو الواخز الذي يحز الانسان فيقوده إلى السلام . إن الانسان يتألم من كل شيء ذاتي ، فيدرك السآمة الحادة الفاشية في نفسه ، وهذه السآمة هي التي تسوقه إلى طلب الزهد والتشاؤم . وهذه هي حالة الرجال السامين الذين جمع بينهم « زرادشت » في كهفه . ولكن النبي يعظهم قائلا لهم « إنكم لم تبلغوا في الألم الدرجة التي أريدها . لأنكم مازلتم تتألمون من حالتكم ومما أنتم عليه . إنكم لم تتألموا من حالة الانسان الحاضر ! » فاذا بلغ الانسان هذه الدرجة البالغة من الشقاء والسأم توارى وأباد نفسه تاركا الأرض للسوبرمان . إن التشاؤم الحاد العنيف هو الذي سيولد التفاؤل الظافر

(يتبع)

خليل هنداوي